المنفى الاغترابي

(قراءة في رواية كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج)

أ.د/ عبد الوهاب بوشليحة

المركز الجامعي لتامنغست

الملخص:

يقيم واسيني الأعرج في روايته– كريما توريوم– حالة جديدة في كتابة الرواية العربية، تسعى إلى تعميق السؤال حول جوهر الإنسان وصلته بالمنفى والاغتراب. والرواية بهذا المعنى هي التجربة الإبداعية الخاصة المعبرة بلغتها السردية عن الوعي التاريخي والمعرفي والوجداني لهذه المرحلة التاريخية الجديدة. ما يعني أن واسيني الأعرج كتب تاريخه الخاص، قبل أن يقف أمام الحقيقة ، وينصت إلى أسئلتها الجارحة.

Abstract

In his novel Crimtorium, Wassina Elaarj considers a new situation in the writing of Arabic novel. It aims at providing a deep insight about the essence of man and its relation to exile and alienation. The novel in this sense, is a special experience with a narrative rhetoric expressive of historical, effective and epistemic consciousness. Therefore, wassini Elaarj wrote his personal history before standing in front of truth and listening to its hurting questions.

مقدمة

يقيم واسيني الأعرج في روايته– كريما توريوم– حالة جديدة في كتابة الرواية العربية، تسعى إلى تعميق السؤال حول جوهر الإنسان وصلته بالذاكرة– الاغتراب– المنفى– المجهول–الموت.فهي إذ تقودنا إلى اكتشاف العالم والوقائع بإضاءاتها للجانب الخفي فيها والمستتر واللانهائي ومحاولة الوقوف على هذا الجانب، ترمي في الوقت ذاته الكشف عن المسكوت عنه، الذي يتحكم في منطق تمثلاتنا للتاريخ–الهوية–والمغايرة للحقيقة والوهم.

والرواية بهذا المعنى، هي التجربة الإبداعية الخاصة المعبرة بلغتها السردية عن الوعي التاريخي المعرفي الوجداني لهذه المرحلة التاريخية الجديدة، بل ما يتسم به هذا الوعي التاريخي من اتساق وعمق وتراكم والتباس، وإشكالية تأزم، وتطلع ومواقف ودلالات مختلفة(1) فالرؤية المعرفية التاريخية الجديدة بوصفها عاملا أساسيا من عوامل البنية الروائية الجديدة، تغوص في أعماق ما يدور بين الظاهر والباطن، وفيما بين الأفراد والجماعات والأحداث والوقائع الجزئية العامة، والأوضاع النفسية والاجتماعية والقومية والكونية،لتكون أخيرا وليس آخرا التاريخ الإبداعي المتعدد المستويات والأبعاد الوجدانية والمعرفية للتاريخ الموضوعي نفسه، وإن اقتصرت في أغلب الأحيان على جانب جزئي أو فردي أو مجتمعي أو قومي حقيقي ومتخيل في هذا التاريخ(2) ، ومن ثم تعبر عن هذا كله، سواء من حيث الدلالة الإيديولوجية أو الرؤية التاريخية والإنسانية والكونية، وتقتحم مساحات الفعل السياسي والثقافي للفئات العامة والمثقفة، وتعبر بمستويات إبداعية ودلالية مختلفة عن هذا الفيض الإنساني الإشكالي المتدفق.(3)

سؤال الكتابة:

تبدو تجربة واسيني الأعرج عند هذه اللحظة بما كتبه أساسا من روايات تاريخية، احتكمت إلى تنويع في الشكل والموضوع وتصور الحقيقة التاريخية التي انتقلت إلى المستوى الإنساني الذي يجعل من سرد التاريخ إمكانا لتأمل المصير الجديد لأزمنة الواقع وتحولاته. هكذا يصبح الحدث التاريخي عنده–أي واسيني– مقترنا بتمثل عوالم تخيلية واعتماد بناء سرد يعيد توليد أسئلة الماضي والحاضر.

فالروائي عندما كتب عن القضية الفلسطينية استولد تاريخه الخاص قبل أن يقف أمام الحقيقة، وينصت إلى أسئلتها الجارحة، طالما أن المشكلة ليست في الحقيقة وإنما في أجزائها المظلمة " فالمشكلة لا تتضمن حقائق غير معروفة، بل طرائق غير معروفة في التعامل مع الحقائق"(4). فعندما تنطلق كتابته الإبداعية من داخلها– رؤيتها– تصل إلى اكتشاف المعرفة الراهنة من أجل تأسيس معرفة الذات. فليس أمامها سوى أن تعلن انفصالها من كل الأجهزة وسلطتها. فالكتابة التي لا تشير إلى أزمة القضية وتاريخها، وضرورة التخلص من علاقات المواربة المتواطئة مع السلطة والمخيال السياسي، لم يعد لها أي مكان لأنها اجترار لما كان، وما هو كائن .

هكذا يبني واسيني الأعرج القضية الفلسطينية في تصور مغاير لغيره، وفي هذا تكمن أبعاد رؤيته. فالنص –كريماتوريوم– ذاكرة إنسانية والذاكرة المكتوبة لا تكون ذاكرة إلا إذا استظهرت تاريخا جديدا يختلف عن التاريخ الذي سبق. أي أن البحث عن صياغة جديدة للذاكرة التاريخية وما رافقها من همّ في البحث عن القضية الفلسطينية ومعاينة معالم تشرذم الكتابة التاريخية العربية– التاريخ الرسمي– يعني أن الروائي اتجه إلى جذور المشكلة انطلاقا من نتائجها الإنسانية–واقع الفلسطيني في واقع غير إنساني " ومن سمات –الفن الروائي– في هذه التجربة كما أشار –جيمسون– تحويل الواقع إلى صور ذهنية، وتفتيت الزمن إلى سلسلة من الحاضر المستديم فيغدو الفن شيئا حسيا يركز على الإحساس أي على التأثير المباشر والفوري للشيء المجسد الذي يفتقر للقوام"(5)والرواية بهذا المعنى الدقيق تطرح سؤال الذاكرة– المنفى–الاغتراب– الموت. وهذا الأمر يفرض التمييز بين العناصر التي تطفو فوق سطح الرواية، وبين الإشكالية الفعلية الصادرة عن تمازج العناصر، وإن كان في الرواية ما يحيل إلى زمان ومكان محددين، كأن يتجسد الزمان عام1948 والمكان القدس.فالرواية عامة، وهي قيمة جمالية تلغي التاريخ ولا تحتاج إلى المكان.لأنها تشتق تاريخا متخيلا من الفلسطيني،أو تجعل من الفرد الذي لا نظير له مرجعا للتاريخ ومهدا له.

في ضوء هذا المعطى، فالأمر يتعلق بجذر مشترك بين فلسطين/الفلسطيني الوطن/الذات. فالفلسطيني الذي يختار المنفى، يختاره المنفى كذلك في عملية التبادل، تتحول فيها الحقيقة برمتها إلى كتابة ما بعد التاريخ عند واسيني الأعرج الذي خلق علاقة حميمة بين هموم الوطن والذات، وهموم المثقف الفكرية الإبداعية، ليصبها في بؤرة القضية، لتطرح هذه الدائرية الديناميكية الحية في تقاطعها مع هموم الإنسانية في الخير/الشر، في العدالة والحرية والمعرفة.

والرؤية الفكرية عند واسيني لا تطرح مباشرة في صور البيان، بل إن رؤيته صيغت، وتغلغلت في كل موقف وفي كل لفظة استخدمها متفاعلة مع كافة معطيات النص.لذلك يتعرض الروائي للاغتراب والمنفى بداية من أبسط التفاصيل والعلاقات البسيطة، حتى يصل إلى المفهوم الفلسطيني الكبير الذي يجسده من خلال جدل الاتصال

والانفصال في تجربة ممتلئة بالروح الفلسطينية، لتصبح كتابته تعبيرا رمزيا عن معاناة الفلسطيني بشكل عام، معاناة الوجود الإنساني وسعيه لتحقيق أشواقه في تاريخ النص.

فالتجربة الأساسية للروائي، تمحورت حول طرح الصراع المعقد بين الحرية وأقصى طموحات الإنسان من جانب، والحتمية المفروضة بشكل قدري على الإرادة الإنسانية من جانب آخر.ومن خلال ذلك نكتشف الثنائيات الضدية المتفاعلة التي لا تنتهي في الرواية بين المطلق والنسبي المحدود، ومفردات الواقع وأحداثه ليصوغها في شبكة شديدة التعقيد، يطرح من خلال رؤية خاصة،تاريخه الخاص. فلسطينيته الخاصة.

سؤال الذاكرة:

طرح إذن واسيني إشكالية الذاكرة الفلسطينية ضمن رؤية إبداعية، ومبنى ثقافي له خصوصيته. فالذاكرة الفلسطينية مثقوبة أمام انهيار كل الطروحات التاريخية التي تحيل الشعوب وقضاياه إلى مجرد ذكريات تاريخية في المتاحف حيث خطر الإبادة الشاملة أو الإبادة التاريخية. لكن الكتابة الجديدة تراهن على سد الثقوب، فتستبدل القضية القديمة، بقضية جديدة والإشكالية بأخرى.

فسؤال الذاكرة كما قرره الروائي في "كريماتوريوم "يقوده إلى عقد موازنة مضمرة داخل البنية الروائية، بين فلسطين التي أرهقها ثقل الذاكرة العربية، وفلسطين التي يحلم بها جيل ينتسب إلى شرفها.

وفي هذه الرؤية لا يساوي الروائي بين الذاكرة العربية وذاكرة جيل جديد وقف على مأساة القضية كتجربة تاريخية لا تزال تكشف تناقضاتها، مما يعني أن سؤال الجيل- سؤال الذاكرة هو أكثر جرأة عن ذاكرة فقدت خطها التاريخي والثقافي العام.فهل كشف هذا الجيل بشكل ملموس وبالتجربة الفعلية،أن الذاكرة العربية دخلت لحظة العتمة؟ هل الاستنجاد بذاكرة صيغت في الماضي لا علاقة له بها، مما يعني مزيدا من الاغتراب؟هل ماضي الذاكرة العربية هو في التحديد الأخير خضوع للتهميش التاريخي؟ تقول مي " أشعر أحيانا بأني مطالبة باسترجاع أرض سرق منها اللون قبل أن تسرق تربتها، متشظية في الأعماق بين أوطان متعددة. وطن كان اسمه فلسطين فاستعير له بالقوة اسم آخر لا علاقة له بوجداني" (6)

" بلادنا ضاقت، ولم يعد بوسعنا البقاء فيها، جزء منها أخذ بالقوة والجزء الآخر سيؤخذ بالسياسة والتقسيمات، وسيشرد السكان على المعمورة" (7)

أعادت الذاكرة الجديدة- ذاكرة مي- خلق فلسطين، ممتدة الأبعاد، يساوي حلمها القائم كينونتها وصيرورتها، ومن هذا التصور كان على الجيل الجديد، وهو الجزء من الواقع العربي أن يلغي ذاكرة بأخرى، وهذا الاستبدال لم يجر على أرض الواقع، بل كان يجري في الذاكرة، وإذا حددنا فلسطين بوصفها ذاكرة " ففي هذا التحديد تكون خلاصة تكثيف لتجربة تاريخية، والتكثيف هو جزء من الصراع بين القوة الاجتماعية على من يصوغ ذاكرة الحاضر كي يستطيع صياغة ذاكرة المستقبل."(8)

تتعين إشكالية الرواية إذن بذاكرة جيل اشتق وعيه الفلسطيني أثناء وبعد الهزيمة، والرواية بهذا المعنى تطرح منظورا جماليا جديدا يرفض الأحادية التي تعايشت في فكر وإبداع الكتابة العربية منذ بداية الأزمة والتي وضعت الأنا في مقابل الوجود الإسرائيلي، وقصرت الرؤية الفنية على هذه المعادلة القاصرة التي لم يعد الواقع- الجيل الجديد — يحتملها في ظل وضع جديد.

يتطلب هذا التصور الجدلي الذي خلق التعدد في الرؤية، فلسفة إنسانية وجمالية جديدة، بمعنى آخر، أن الرؤية الجديدة هي جديد الكتابة العربية عند واسيني الأعرج، لا تستفيد من تاريخ وإبداعات الكاتب فحسب، بل وصلت خبرته إلى الدرجة التي تجعله قادرا على امتصاص ثيمات القضية الفلسطينية ورؤاها، ليعيد صياغتها داخل منطق رؤيته، مما يمثل تناصا وتفاعلا حياّ مع تاريخ الإنسان الفلسطيني، وبالتالي قدرته علىإيقاظ شهوة القضية داخل ظروف إنسانية شديدة التدني، أي أنه يخلق دوامة دائمة للحركة تجرف الأماكن، والزمان والطفولة، واللحظة الحاضرة بحسيتها وثقل وطأتها، ليخلق من هذا كله إيمانه باستمرار الوجود وحركيته المتصلة بين الحياة والموت.

وفي هذا السياق يقدم الروائي صيغة فنية تحتضن أزمة الذات، فالمكان — الجغرافيا- ثقافة إنسانية تلغي تاريخ السياسي كله لصالح تاريخ مكثف بذاته، هو ثقافة المكان ومكان الثقافة (9) وبالتالي فتسليم الروائي باستقرار المكان وثباته، ووعيه بديمومته النسبية واستمراره من القضايا الأساسية التي تكسب الرواية حساسية جديدة في التركيز على أهمية المكان بوصفه بعدا شديد الثراء والخصوصية، فهو لا يتعامل مع المكان كموقع

للحدث أو حتى بعدا جغرافيا، وإنما كجوهر أو محور ثابت في مواجهة مجموعة متباينة من المحاور المتغيرة بالصورة التي تصبح معها المكان هو النص، والبطل الرئيس وتكتسب الشخصيات أبعاد فنية فلسطين الجديدة، ويتحول إلى عنصر فاعل يضفي على الشخصية دلالات وإيحاءات جديدة (10) أي أن اختزال سؤال الذاكرة في المكان يحيل على انفتاح سؤال الهوية عند الروائي بوصفه مرآة لوعي يتجاوز وعي القضية في طروحاتها التقليدية.

و بالتالي يجعل الروائي– أي واسيني– مدينة نيويورك البديل الموضوعي للذاكرة التاريخية المفتقدة والتي ميعتها الأحداث وعمليات التزييف، وإذ تصبح المدينة التي تعيش فيها الشخصية –مي– علامة على واقع اجتماعي وثقافي وحالات نفسية، وأحداث سياسية، فهي تشكل الوقت ذاته نوعا من التحول في الزمن والتجربة الفلسطينية.

في ضوء هذا المعطى، يعدّ المكان – نيويورك – معادلا اجتماعيا لميلاد مي، أي خروجها من رحم القدس إلى فضاء العالم الخارجي القاسي، وهو في التحديد الأخير معادلا فضائيا لحالة من الوجود ولنمط من الرؤية، وجزءا أساسيا من تجربة الحياة نفسها. هنا بالذات يمثل المنفى أقصى درجات الوضوح بوصفه موقف المواجهة أمام الآخر الذي يجسد الرغبة في القتل والإبادة، وبالتالي لا تستمد الذات المنفية –مي– حضورها الكامل لحكيها سوى من تجربتها التي تستدعي سلفا حكيا بنوع من التركيب الحكائي الذي يستعيد الزمن ويحسه في آن " فالإنسان الذي اضطلع – المنفى– يعلم أنه لم يغادر التاريخ بالرغم من الفاصل المرعب الذي يعيش فيه، بل عاش – فقط– التاريخ كفراغ – وهو– قيد الإنجاز والتحقق (11)أي أن مي، ذاكرة لا تقبل الانطفاء، وحوار مع ذاكرة ثاوية في الوعي، فتحولات المنفى وشرطه الإنساني يقوم على إعادة تشكيل المنفى– المكان– وفي هذا التصور لن تكون نيويورك إلا وجها آخر للقضية الفلسطينية، طالما أن مي الفلسطينية الأمريكية سيرة إنسان يرسم حوارا بين ماضي تولى ومستقبل مرغوب " مي... أنت تهربين من عالم ينام فيك وكلما استيقظ، شعرت به جرحا عميقا. كنت أفكر أن ندخل من هنا إلى إسرائيل، أو فلسطين لا تهم التسميات وكنت أتمنى أن تري أهلك وتلمسي طفولتك ". (12)

" لا أحد لي هناك إلا القبور، ولا أريد أن أرجع لكي أزور القبور فقط ثم أنزوي مع أشباحي وأبكي. أريد أن أرجع نحو مدينة تمنحني الحياة وتغبطني في طفولتي الجميلة. كيف سأتعامل مع من طرد من أرضي

و قتل أمي وأهلي؟ لست حقودة ويمكنني أن أغفر وأنسى، ولكن الألم ما يزال حيا والجرح مفتوحا". (13)من هنا انبثقت إستراتيجية الرواية في رسم حدود شخصية مي التي تتحمل عبء تشخيص الثنائيات المجردة: الظاهر/الباطن –السّري–العلني – الحياة/الموت وكل ما يمكن أن يقود إلى تفجير المحتمل والممكن في مسارات تصويرية تحضر من خلالها الحياة بوصفها ممارسة ملموسة.

إن الرواية من هذه الزاوية " مبنية وفق نمط يستجيب للخطاطات السردية التي توزع الفعل على خانات، حيث يتميز الإنسان وتفسر أفعاله من خلال وجود رغبة في الحصول على شيء ما، مع الرحلة المصاحبة للبحث على موضوع الرغبة "(14) بتعبير آخر تطرح مي القضية في وجهها الجديد، ويتأكد الخيار بين مكان وآخر، وتأكيد لمبدأ الاختلاف الذي تطرحه الحركية التاريخية بين الأجيال، ومن ثم لا تكون مي إلا شاهدة تحمل شهادتها بالأسئلة الحارقة، لأنها في التحديد ليست إلا تلخيصا مكثفا لرؤية جيل في تناقضاته وأزماته، فمأساة مي، هي مأساة جيل من الفلسطينيين في المنفى الشامل، لوعة الزمن، قسوة الاختيار فالاختيار المستحيل فرض عليها بداية جديدة في مرحلة من عمرها، ومن هنا يساوي المنفى كما شكله الروائي الفاجعة التي تفصل بين الإنسان وحلمه، فلا يمكن التحرر منه، ولا يمكن إدراكه. والشرط الوحيد هو البحث عن الذات وفيها " في المطار سألني الشرطي وهو يقرأ جواز سفري: مي.... فلسطينية ؟ أجبته بلا تردد: أمريكية . نظر إلي بعينين حادتين: أسألك عن أصلك قلتك أمريكية .ولا أدري إذا ما كنت أنتقم منه أم من نفسي، أمريكية نعم ؟ تلك أرضي ولا أعرف غيرها، ولا أدري إذا كنت بالفعل صادقة ولو جزئيا، أم أني كنت أعبر عن صراخ ظل مدفونا في أعماقي، وعن نداءات لم يسمعها أحد(15) ".

تضع مي سؤال الهوية من وضع تجتاحه الأحاسيس الحادة، فيلتبس عليها وضعها الذاتي المتناقض، فلا تتمكن من معرفة وجهها الحقيقي.بتعبير آخر، يندرج سؤال الهوية عند مي انطلاقا من فلسطينيتها وأمريكيتها لأن " ما يميز – هوية– ما،هوأنها لا

تتطابق مع ذاتها بتاتا. وهذا يستدعي قضية تمس كل هوية أي لا توجد علاقات مع الذات، ولا تعيين ذاتي للهوية بدون ثقافة، لكنها ثقافة الذات بوصفها ثقافة الآخر، ثقافة التعليق المزدوج والاختلاف مع الذات(16)" ينطرح إذن بين الفلسطينية/ الأمريكية جدل الثقافة – الاختلاف – الهوية، التي هي بالضرورة ثقافة تمارس بوصفها اختلافا: اختلاف في الذات واختلاف مع الذات.(17)

هكذا ترتسم إشكالية الذات/الهوية في عالم مي. والمعالم الأولى لهذا التشكل تتبدى في هذا المسعى الحثيث لاستيعاب وضع ماض يظهر وكأنه شديد الالتباس، لكنه عميق التأثير، بحيث يسيطر على وضعها في الحاضر فيكاد يلغيه. وفي هذا الوضع يبدو الحوار بين :مي، الشرطي، المحور الأساسي للحدث الذي يحدد وجهة الأسئلة المتلاحقة، فكأن الحوار حدد الإشكال الأنطولوجي والثقافي الذي تتصدى له مي منذ البداية.نعم أنا لا أملك إلا أرضا، ومع ذلك فأمريكا ليست أرضي*، فرؤية مي هي في النهاية شكل المكاشفة التي بدأت مع المنفى لتستعيد بها تاريخها وحياتها التي لا تتحقق إلا بمحاورة الآخر–الشرطي– الذي تطل على داخله وأسئلته بآراء واستنتاجات، وكذلك باختلافات جوهرية في المنظور، تجعله–أي الشرطي– يراها عبئا قبل أن يضطر إلى الانسجام مع مساءلته لطبيعة التشظي داخل المخاطبة–مي– التي ينبغي ألاّ تركن إلى ما هو افتراضي في حياة متقلبة يصعب فيها جمع أرضين على مصير واحد. بمعنى، أن مي في بحثها عن أرض ثابتة تطرح نموذج الإنسان الضائع الذي يعيش حالة التمزق والبحث عن سر غير مرئي. أي النموذج المتطلع إلى امتلاك قيمة إنسانية مفقودة في عالم تسوده القسوة والحرمان والاستيلاب وبالتالي فالصراخ هو خلاصة صراع قائم بين دواخل الذات والوجود الخارجي الذي يحيط بها، والمتشابك بتفاعلاته الساخنة، من هنا كان الموقف الذي يشكله السرد موقفا إنسانيا شاملا يهدف إلى كشف وتحليل الصراع الإنساني من الداخل بما فيه الخوف والارتداد من ناحية، وكذلك التمرد والاندفاع والقوة من ناحية أخرى عبر تعامل حاد ودقيق مع جدل التاريخ المتغير، والأنا المتغيرة.

محنة المكان:

إن اغتراب مي عن العالم وانفصالها عنه، هو في الوقت ذاته شكل خصوصيتها كإنسان وخصوصية رؤيتها ووجدانها. صحيح أن الانفصال يفقد الإنسان ذاته، والفقدان

هنا مزدوج: إما أن تفقد الذات ذاتها الأصلية وسط الأشياء وتستحيل إلى شيء، وساعتها تقترب من القطب الآخر للاغتراب وتتحجر ويفقد الإنسان إنسانيته.، وإما أن تفقد الذات ذاتها الضائعة وسط الأشياء ويكون الفقد كسبا للذات الأصلية وهو المعنى الأصيل الذي نجده عند الصوفية حيث تستعيد النفس البقاء بعد حال الفناء.(18)

فالاغتراب عن النفس هو افتقاد المغزى الذاتي والجوهري للعمل الذي يؤديه الإنسان وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضا، اغتراب الإنسان هو اغتراب تاريخي مرتبط بعلاقته بالوجود مرت بمراحل صراع مختلفة أراد الإنسان فيها انتزاع حريته، لذا فإن تاريخ اغتراب الإنسانية هو تاريخ بحثها عن الحرية، ولكي لا يشعر الإنسان بالاغتراب تجاه تاريخه فإنه ملزم بتحرير التاريخ من الاغتراب، بمعنى إحداث تغيير في مجرى التاريخ، وهذا يتم بأن يدخل الإنسان في تحديد مسار التاريخ ويتحرك به ومعه.(19)

وإزاء فعل الاغتراب، فإن الشيء الأكثر أهمية ليس على وجه الدقة طبيعة الطريقة التي تعايش بها مي ذاتها، وإنما حقيقة المعنى الصحيح لشعورها بذاتها المغتربة. على هذا النحو، فهي تحس بصورة حقيقية بمقولة إنني ذاتي، وبالتالي فهي تعايش ذاتها ككيان فردي، متفرد، ينفرد في معايشة هويته في زخم خصوصيتها وتفردها كذات غير قابلة للتكرار. فالشعور بالذات ينبع من معايشتها لنفسها كقضية وفكر وموقف، وبالتالي فالاغتراب عملية جدلية ممتلئة زخما خصبا في كونه المجال الذي يتم عبره اختصار واقع مي واستعادة الماضي والرجوع إلى الذكريات، وتدفق الأحداث العابرة في ذاكرتها لإعطائها البنية التاريخية والنفسية الخاصة، في وحدة كيانية تستقيم فيها المواقف ودلالاتها " أشعر بنفسي على هذه الأرض وبين هؤلاء الناس الطيبين الذين منحوني كل شيء، ولكني عاجزة أن أرد لهم جميلهم".(20)

إن الرغبة في الوصول إلى أعمق نقطة في الذات هي التي تفسر طبيعة العلاقة بالمكان –أمريكا– التي تفرض حركة في الزمان والمكان. ذلك أن التوق نحو الذات يفرض التوجه نحو فضاء التغيير والتحولات، وتنبثق هذه الاستراتيجية التي انبنت منذ البداية على ما غيبه زمن المنفى، الأمر الذي سيتحكم في رسم شخصية مي التي تتحمل عبء تشخيص جدلية الحضور والغياب وكل ما يمكن أن يقود إلى تفجير المقول والمسكوت عنه في مسارات تحضر من خلالها حياة المنفى/الاغتراب. بتعبير آخر، في الاغتراب والمنفى

عرفت مي اغترابها ومنفاها، مما جعلها ترى فيه محنة إنسانيتها فهي تقابل بين ماضيها وحاضرها، وتفسر وضعها بالسابق منه، وتسقط السابق على اللاحق في علاقة متشابكة ومعقدة الأطراف، مما يعني أن مي أصبحت بالفعل مدمجة في الأبنية العميقة لأمريكا بدرجة تفوق ما اعتادت تصوره. فارتباطاتها بالمكان تمارس ضغوطها وتفرض حدودها، ولا يمكن الخلاص منها إلا بمعاناة الألم الشديد في الذات، " أنا مريضة بوالدي وهو مريض بي وكلانا مريض بأرض سرقت من فراشه. لا أنا استطعت لأن أتركه، ولا هو استطاع أن يضرب صفحا عني وينسى أنه أنجبني وجاء بي نحو مدينة لا أنا اخترتها ولا هو اشتهاها.أعرف جيدا أنه لو خير للحظة واحدة، لأختار أن يموت على تربة القدس على أن يعيش داخل هشاشة مفرطة اسمها " نيويورك".(21)

" ما جدوى العودة إلى أرض لا تعرفك ولا تعني لها أي شيء، وتترك أرضا يتنفس جلدك تربتها؟ أقول هذا الكلام وأنا لا أعرف سر هذا الحزن كلما انتابتني أرضي الأولى، مثل المرض العضال والخوف الذي لا نعرف له مصدرا، مع أني قضيت حياتي كلها في هذه المدينة في مقاومة هذه الفكرة التي تتجشأ بالأشباح".(22)

يعدّ المكان –نيويورك– معادلا فضائيا لحالة من الوجود ولنمط من الرؤية، ولتجربة من التجارب الإنسانية في مواجهة العالم الخارجي المفروضة على الإنسان بوصفه جزءا أساسيا من تجربة الحياة نفسها. فقرار الهجرة إلى العالم الخارجي، هو الفعل الأول للوجود، وهو المعادل الاجتماعي والثقافي للميلاد بوصفه– هو الآخر– خروجا من رحم بيروت إلى فضاء قاسي اسمه نيويورك التي تحولت إلى متاهة تجسد تجربة التيه التي تعيشها مي في هذه المرحلة من حياتها. لتطرح جدلية المنفى/الاغتراب عند مي، بين تصوراتها المختلفة عن الواقع، وبين ما تتوهمه وتكشف عنه حركتها في الواقع من ناحية أخرى. مما يعني أن المكان هو العنصر المحدد لرؤية العمل والمفسر لبنيته معا، وهو الذي يكسب فلسطين/نيويورك قدرة على التحول في النص إلى معادل لفضاء العالم ولتجربة الوجود. فالنص المقدم بضمير المتكلم، هو نص مي الذي تحتل وحدها صدارة الحكي وتستولي على منظور الرؤية، وحتى تكتسب الأنا – مي– بعدا استراتيجيا ولا تكون مجرد حالة فردية يتوغل يوبا في صوتها لتنبني حلقة جديدة من المنفى/الاغتراب بينهما.

" لم أكن أريدك أن تهزم هويتك بهويات مليئة بالأشباح والحرائق والأشواق الدفينة، ولكن يبدو أن المشكلة أكثر من رغبتي البسيطة . اعذريني ربما كنت ساذجة ولكن كنت صادقة في إبعادك عن كل ما يهز يقينك بالمكان الذي منحك الحياة والحب والفن والحرية". (23)

" أنت محظوظ يا يوبا أنك ولدت في مكان منحك الحياة والحرية على الرغم من الخيبات. الحياة بدون خيبات ستكون مسطحة وبلا معنى. ينقصك شيء من الشرق لم أعرف كيف أمنحه لك. حرمتك منه لأني كنت أخاف عليك من أن تظل معلقا بين سماءين: أعطيتك بالقدر الذي لا يؤذيك. مازلت شابا وقد تمنحك الأقدار شرقا تشتهيه بقلبك وعقلك".(24)

تتضح ذروة المأساة في سؤال مي في البحث عن المخرج بمفاهيم: النفي- الاغتراب، العجز عن الاختيار.بل رأت أن مأساة جيلها في النفي الشامل ولوعة الزمن وقسوة الاختيار، ورعب اللامتوقع والاختيار المستحيل. إنها تقترب أكثر من درامية الموقف، وهي درامية تختلط فيها تجربتها الذاتية بمنظور للمكان المحدد، وتتمازج فيها الثقافة بماضي ذي أسرار غامضة.إنها محطة لزمان ومكان وتجربة- لذلك تحيل رؤيتها الدرامية يوبا على فلسفة تستلهم منها ذاته مسارها.

إنها تعيد صياغة كينونة يوبا بوعي يتكون من عناصر يتجاوز بها الوطني والذاتي والجغرافي، ومن ثمّ تمتزج العناصر جميعها تتحول إلى عنصر جديد يتضمن العناصر المكونة لهوية يوبا الجديدة. بهذا المعنى فإن مي تعيد إنتاج الهوية بتصور إنساني خالص يحتضن العهد الجديد، لجيل يتجاوز مأساة الغربة والاغتراب ليكون طاقة تواجه قبح العالم وشروره. مما يعني أن الرواية وزعت الحلم الفلسطيني في ضوء الوعي وتحولاته بما يحتم العناية بالمنظورات التاريخية لمثل هذه التحولات، والتي تسقط لغتها بقوة على تمثلات الشخوص والمواقف، وكذلك على مفاهيم الأجيال: جيل مي- جيل يوبا وليس غريبا أن تتبدى الرواية مقترنة بالتحولات الجارية في الوعي الثقافي والإنساني لشخصية يوبا.

الإحالات:

[1]محمود أمين العالم: الرواية بين زمنيتها وزمنها مقاربة مبدئية عامة ، فصول المجلد الثاني عشر. ع/1 ربيع 1993.ص 14

[2])المرجع نفسه : ص 15-16

[3]) المرجع نفسه : ص 16-17

[4])ت.ي.أ يير ك أدب الفانتازيا. تر: صار سعدون سعدون . دار المأمون.1989 ص 32.

[5])مايك فيدسون: الثقافة الاستهلاكية والاتجاهات الحديثة تر : محمد عبد الله المطوّع دار الغرابي . بيرت.ط1 . 1999 ص29.

[6]) واسيني الأعرج : كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس منشورات الفضاء الحر الجزائر 2008 ،ص 153.

[7])المصدر نفسه ص 177.

[8])الياس خوري : الذاكرة المفقودة: المركز الثقافي العربي، ط 2002 ،ص 24.

[9]) فيصل درّاج : ذاكرة المغلوبين، المركزالثقافي العربي .ط1 2002 ص 24.

[10])أمجد ريان: صوت صارخ في الشوارع، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998 ص 251.

[11])مصطفى الحسناوي: كتابات للأحياء – نحو ثقافة أكثر إنسانية – الشاطئ الثالث ط1 2006. ص 44.

[12])وسيني الأعرج : كريماتوريوم . ص 377.

[13])وسيني الأعرج : كريما توريوم ص 377 .

[14])سعيد بنكراد : السرد الروائي وتجربة المعنى. المركز الثقافي العربي. ط1 2008. ص 135.

[15])وسيني الأعرج : كريما توريوم ص 315

[16])جاك دريدا : لغات وتفكيكات في الثقافة العربية – لقاء الرباط. تر : عبد الكريم الشرقاوي دار توبقال . ط1 1998. ص 41

[17])المرجع نفسه : ص 41

*طرحنا هده المقولة قياسا على مقولة جاك دريدا (نعم انا لا أملك إلا لغة واحدة ومع دلك فهي ليست لغتي Oui je n ai qu' une langue.or ce n'est pas la mienne.يراجع:جاكدريدا.أحادية الآخر اللغوية:تر.عمرمهيبل.منشورات الاختلاف.

[18]) مجاهد عبد المنعم مجاهد: الاغتراب والتشيؤ، المعرفة ع/ A9 كانون الثاني 1977. ص 83.

[19])- محمد عبد الرضا شياع ،الاغتراب في الإبداع الأدبي ،الحوار المتمدن -العدد: 1516 - 2006 / 4 / 10 - 04:54 ،المحور :قراءات في عالم الكتب والمطبوعات http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=61785.

[20] واسيني الأعرج : كريما توريوم . ص 25.
[21] واسيني الأعرج : كريما توريوم . ص 36.
[22] المصدر نفسه : ص 46-47.
[23] واسيني الأعرج : كريما توريوم . ص 95.
[24] المصدر نفسه : ص 95.